

الى

الفنون الجميله

تأليف

محمود خيرت المحامي

سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

مطبعة أمين عبد الرحمن بشارع محمد علي نمرة ١٤١
وشارع خيرت نمرة ٣٨

كلمة للمؤلف

لا ينكر احد ان سلامة الذوق من ادعى الأسباب الى توخى الأتقان فى كل عمل فيخرج مرتبا منسقا انيقا

لذلك عنيت الأمم الراقية بالفنون الجميلة لأنها تولد هذا الشعور فى نفوس الناشئة حتى جعلت لها المقام الاول

ولا يكتسب الأنسان من هذه الفنون سلامة الذوق فقط فأنها ايضا تلطف من شعوره وتوسع من دائرة وجدانه وتفتح صدره الى مايرفع احساسه ويحببه فى المروءة والشفقة والهمة فالفنون الجميلة اذن من اكبر اساتذة الأخلاق

ولقد كانت مصر مهدها من قديم الزمان حتى اذا دفنت على تعاقب القرون قام صاحب السمو الامير النبيل يوسف كمال فبعثها من جديد بتلك المدرسة الفريدة التى كان له الفضل فى انشائها وفى هبتها لوزارة المعارف

الجليلة لتتمهد أمورها بما هو مأثور من الهمة عنها

ولما كان هذا الفن في حاجة الى مقدمة عربية تفتح اذهان الطلبة اليه وترشدهم الى القواعد الأولى التى هي أساسه دفعتني غيرتى الى وضع هذه المقدمة الموجزة راجيا ان يكون لها حسن الاثر .

محمود صبرت

الفن الجميل

الصناعة وليدة الحاجة فهى التى دفعت الانسان من عهد الخليقة الى صنع الأسلحة والملابس ليتقى بهما شر الوحوش وشر تغيرات الطبيعة ولكنه استمر بعد ذلك يتدرج الى ان حل الذوق فيه محل الحاجة!

وتتفاوت المخترعات باختلاف نشاط الناس واذواقهم. انظر مثلا الى القصور والتماثيل والصور فالأولى كان يمكن ان تكون مجرد أكواخ بسيطة وحمى مأمون وكذلك الصور والتماثيل وغيرهما كالموسيقى وسواها فأنها لا تحقق منفعة ظاهرة . ولكن تنسيق القصور وزخرفتها وصنع التماثيل والصور واتقانها كل ذلك موقظ فى النفس عواطف الأعجاب والتلذذ والرهبة والخوف والشفقة وعلو الهمة حتى أطلق عليه اسم (الفن الجميل) . فهذا الفن اذن هو كل شىء تخرجه كف الأنسان جميلا ولو غير مفيد

فأن الصور التى على الأوانى لا تكسبها متانة فوق متانتها والزركشة التى فوق الأنسجة لاتجعلها اكثر ملاءمة لفصلي الشتاء والصيف وكذلك المعابد والكنائس والمساجد فأن الصلوات تصل من اعماقها الى سمع الخالق ولوكانت بسيطة خشنة

ولكن تلك الصور والنقوش والزخارف تملاء العين وتسر النظر وتلطف الحواس وتحيي الأنفس وتشرح الخواطر حتى انها اتعد من أثمن الكنوز .

منشأ الفن الجميل

يظهر ان هـذا الفن ظاهرة اجتماعية قبل كل شيء لأن صنع آلةمن الآلات اذا كان مقدما على سواها لضرورتها الا ان صنعها على اسلوب مراعىً فيه الجمال والتناسب لازم ايضا لكي يتضاعف الأقبال عليها

وما من جماعة فى الأجيال الغابرة مهما كانت حياتها

بسيطة جهلت ذلك الفن ولو على قدر نسبي حتى أنك لترى اثره فى الوشم المنقوش على اجسام الأمم المتوحشة الأولى واجسام بعض الأمم الباقية على توحشها للآن . ومن هنا يمكن ان نهتدي الى منشأ تمشق القدماء للفن من تحليل حياة الأمم التى لاتزال على همجيتها .

ولو تتبعنا ما اودعه الأسلاف من آثارهم خبايا الأرض لوجدناهم على شيء من حب التناسب (Symétrie) الذي يعدل اوزان الشعر والموسيقي الآن ولوجدناهم ايضا اميل الى الألوان لا لأنها لاجتماعها تمثل صورة من الصور ولكن لأنها تؤثر على انظارهم برونقها ونضرتها وربما زاد واعلى ذلك شيئا من الخطوط المستقيمة اوغيرها على شكل زخرف حتى تدرجوا من ذلك الى تصوير الحيوانات ولو على وضع ناقص خشن ثم على تصوير الانسان نفسه

وأبسط مثل يقرب الى الذهن تفهم تلك الأدوار هو ملاحظة احدا أطفالنا فتراه من نشأته ميالا الى تنسيق

الأشكال حيث يخطف بصره بعد ذلك تجمع الألوان ثم يظهر فيه حبه لمد الخطوط فوضع الأشكال فالتصوير وبهذا يصل الى اخراج الفن على صورته المؤثرة الكاملة

وسائل الاهتداء الى هذا المنشأ

ان معرفة هذا المنشأ ليست من الأمور السهلة ولكن مجهودات القرن التاسع عشر اماطت اللثام عن كثير من صناعات الجنس البشري قبل انشاء الأهرامات وقصور بابيلون (١)

هدتنا هذه المجهودات الى ذلك العصر الذى اطلق عليه اسم العصر الرباعي Quaternaire حتى شعرنا كيف

---

(١) عاصمة الكلدان على شاطىء الفرات وهى من اكبر وأغنى مدن الشرق اشتهرت بآثارها وحدائقها المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع . ولقد بلغت من وفرة سكانها وكثرة قصادها وموارد ثروتها وعلو كعبها فى المدنية مبلغا جعلها فيما سلف فى مصاف روما ولندن وباريس الآن ولكن الترف افسد اخلاق اهلها فاضمحلت

تغير وجه العالم الآن عما كان عيه فى الزمن الغابر فأن فرنسا فيما سبق ما كانت منفصلة عن بريطانيا ببوغاز بادى كاليه Pas de Calaie ولا صقليه عن ايطاليا ببوغاز مسين Messine ولا السويد عن الدانمرك . وان ايقوسيا كانت مدفونة تحت عباءة ثقيلة من الثلج وان ثلوج جبال الألب كانت تنحدر حتى مدينة ليون

وفي ذلك العهد كان بفرنسا خيول وأبقار ومعز ولكن على شكل وحشي لم يكن سكانها وصلوا وقتئذ الى تذليلها واستخدامها لجهلهم أمور الزراعة واقتصارهم فى غذائهم على الثمار وعلى ما يحصلونه من صيد البحر والبر

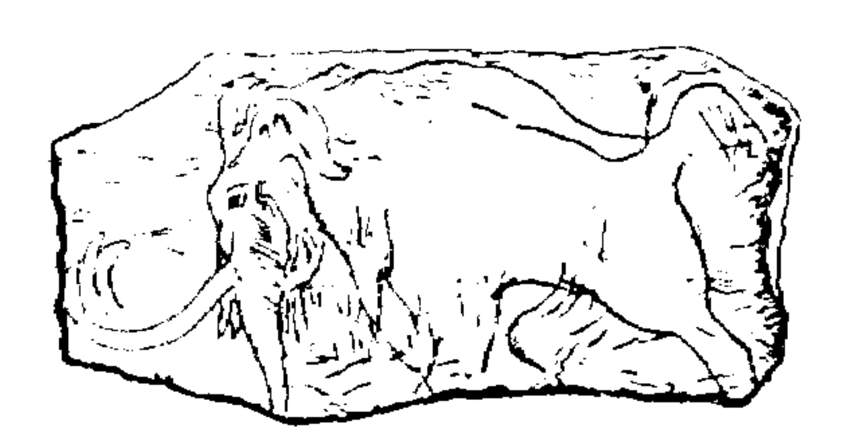
ولقد كان بجانب هذه الحيوانات غيرها درست وانقرضت كالماموس وهو فيل عظيم الجثة (فى المتحف البريطانى منه الآن هيكل عظمى تام) وكوحيد القرن وهو الكركدن ذو الخياشيم المنفصلة

أما آلات الصيد فى ذلك العهد فكانت مصنوعة من

السيلكس (حجر الصوان) أو من العظام او من القرون . ولقد استمر ذلك العصر الحجري آلافا من السنين كان اخرها سنة ١٢٠٠ أو سنة ١٠٠٠ قبل المسيح على وجه التقريب ولكن لا بحالة واحدة لأن صدره كان شديد الحرارة رطبا ثم اعقبه جو خفيف الحرارة جاف كما ان الناس في صدره كانوا يعيشون من الصيد كما مر حتى انهم لجأوا في مسكناهم الى سواحل الانهر . وقد دلتنا الآن على ولعهم بالفن اذ كانت بيضاوية او ثلاثية الشكل ذات حواف حادة منتظمة .

ويظهر ان تلطف الجو بعد ذلك اوجد حيوانا جديدا من جنس الأيل (وهو قريب الشبه من الحيوان المستخدم في روسيا لجر الزحافات على الثلج) فكانوا يقتاتون بلحمه ويستخدمونه في الركوب والنقل ويصنعون من جلده ما يحتاجون اليه ولما اشتدت برودة الجو انقرض هذا الحيوان وحل محله الأيل نفسه (انظر شكل ١)

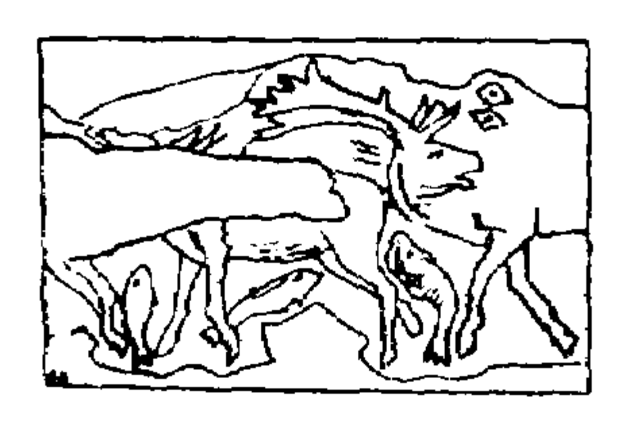
(شكل ١)



في هذه الصورة اشارة كافيـة الى مبلغ تدرج اهل ذلك العهد في الفن لأنها تمثل واحدا من ذلك الحيوان بحركات مختلفـة خطوطها وحركاتهـا فى غاية الدقة مع انها منقوشة على الحجر ومع ان مثل هذه الحركات ماعرفت فى العصر الحالي على حقيقتها الا بعد اختراع الآلة الشمسية المستعملة في رسم الصور المتحركة

وكذلك عثر سكان العهد المذكور علي مادة المغرة الملونة (Vermillon) وهي تراب حديدي احمر اللون فمالت نفوسهم اليها وأخذوا يطلون بها ثيابهم واكواخهم حتى انهم كانو يلطخون بها اجسامهم

ومن الأمثلة على ما كانوا ينقشونه فوق الأحجار ايضا الشكل (٢)



وهو غير ملون هنا الا ان اصله ملون وهو يمثل صورة بيزون اي بقرة وحشية لا تفترق عن البقر المألوف الامن حيث ضخامتها فقد بلغت مترين ونصف متر ارتفاعا في ثلاث امتار طولا وهي قصيرة القرون مقوسة الظهر قوية . وقد كان هذا النوع فيما مضى يسكن غابات القوقاز ولتوانيا . وعلى كل حال فجمال هذا الرسم ودقته ظاهران لأن ذلك الحيوان فيه يكاد يكون حيا مع خلوه من التفاصيل

ولقد هدت الاكتشافات الأخيرة العلم الى اثر جديد يرفع من مقام الفن في تلك العصور وهو لوحة من الورق الصخرى

(نوع من الصخر ينفصل الى طبقات سطحية رقيقة) فى مغارة بمقاطعة الاندر مزينة بأنواع الأيل المار ذكره مما يعد مثلا ناطقا بدقة الصنع وسلامة الذوق وكذلك صور ملونة متقنة بمغاور ألطاميرا بأسبانيا وكهوف بيريجوردو كلها ادلة على تقدم الفن فى ذلك العهد

هذا قليل من كثير مما كان عليه الفن قديما. ولولا حظنا ان الأمم تحيي بآثارها لأمكن ان ندرك مزية الفنون ومزية مجهودات اولئك المكتشفين . افرض مثلا ان امة غابرة كانت مجهولة بحكم الأيام وتعاقبها ولتكن امة مصر القديمة التى ضرب عليها الزمان ثوبا كثيفا من النسيان ثم عثر احد الباحثين على هرم من اهرامها او على أحد معابدها كمعبد ادفو الذى كان دفينا تحت الأرض وا كتشف فى عهد المغفور له اسماعيل باشا فهلا يرد فورا على خاطر ذلك الباحث ان تلك الامة التى شيدت هذه الآثار كانت امة قوية شديدة التعلق بدينها . تعتقد فى خلود الروح وأنها

فوق ذلك أخذت من المدينة بقسط وافر فهذا الجوالة المفكر بتحليل هذه الآثار الصماء واستنطاقها واستجلاء اسرارها عكنه ان يسلسل الحوادث الغابرة ويرتبها ويردها الى اصلها حتى يصل الى اصل تلك الأمة العريقة

واذا كانت اليونان ضاعت حلقتها من التاريخ ايضا ثم عثر احد العلماء من بين اطلالها على عامود من اعمدة بروفيليه[١] Prophi lé او على بقايا تمثال من تماثيل فيدياس[٢] او على صورة من البرونز من صنع ليزيب (Lysippe)[٣] او على قطعة من مسكوكات اسكندر المقدوني او على اناء من الأواني القديمة فهلا يعتقد ان هذه البقعة من الأرض كانت آهلة بالناس عامرة بالمدنية . وان سكانها كانوا على

(١) يطلق عند القدماء على الممشي المحاط عند جانبيه بالأعمدة وقد خصصوه بالبناء السابق على مدخل اكروبول اثينا (قلعتها) قبل الوصول الى البارتينون (هيكلها)

(٢) اشهر نحات يوناني مات سنة ٤٣١ قبل المسيح

(٣) نحات يوناني من مشاهير النحاتين في القرن الرابع قبل المسيح

جانب عظيم من النشاط وعلى شيء كثير من سلامة الذوق يعشقون الجمال حتى انهم خلدوه من بعدهم في تلك الآثار

العظمة والجمال

قبل خلق الانسان كان الكون مكسواً بثوب العظمة وليس بثوب الجمال

ولقد حلت في ذلك العهد بالعالم الارضي كوارث الزمن فمزقت قاراته وغيرت مجرى انهاره وبحاره وزلزلت جباله الشامخة . ولم يكن ما هولا بغير الحيوانات المتوحشة التي تخيفنا بقايا عظامها وترعبنا

فلو ان الانسان كان موجودا في ذلك العهد على تلك القارة العظيمة نصف الملتهبة والتي ما كان يتنفس فوق سطحها غير الكركدن والفيلة الهائلة وفرضنا ان فضاء الاعمار الاولي اعد للانسان لغة خاصة لما رأيناه يتردد في ان منظر العالم كان اذ ذلك عظيما

اذن فالعظمة توجد فى كل مكان حتى فى الفضاء المجرد وفى سكون الليل الحالك وحتى فى المناظر المرعبة المخيفة ولكن الجمال لا يوجد دائما لأنه إثر لقوانين ونسب خاصة أزلية فالعظمة التى طابعها القوة والخشونة ترج الروح وتصهرها ولكن الجمال وحده يسكن من ثورتها ويلطف من شعورها ويأخذ بيدها الى ساحة الهدوء والسكينة فالجمال فى الغالب بشري ولكن العظمة دائما سماوية مع بعض شذوذ لأن الانسان كثيرا ما يتخطى دائرة الجمال ويلمس بكفه جلال العظمة ولكن ذلك لا يكون الا اذا خرج عن مستوي امثاله من البشر فاذا كتب له الله أن تختصه الأقدار بنعمة الوصول الى هذه الذروة فانه يدهش الكون ويسحر العالم ومن هذا النوع طائفة من النابغين مثل دانت ورمبران وشكسبير وبوسين وكورنيل وغيرهم فانهم أئمة عصورهم وهبهم حسن الحظ هذه النعمة الجزيلة نعمة العظمة

ومن مميزات العظمة أنها على بساطتها تأخذ بلب المتوحش والمتمدين على السواء خالدة لا تبلى لأنها بنت الطبيعة وهبة السماء . ولهذا لا يجهل أحد كلمة كورنيل « أن يموت » (١) وكلمة هوجو : « المستقبل لله » (٢) وقول دولة سعد زغلول باشا فى فندق سميراميس يوم

---

(١) ألب مدينة ايطالية كان لها شأو فى التاريخ وكانت روما خاضعة لها فلما تحاربتا حكمتا بينهما حقنا للدماء الكوريات الأخوه الثلاث أبناء ألب يتبارزون مع الهورات الأخوة الثلاث أبناء روما

فلما علم أب الهورات أن اثنين من أولاده قتلا فى هذا الصراع وأن الثالث لاذ بالفرار استقبل هذا النبأ بالفزع وأنساه فرحه بشجاعة ولديه الشهيدين مصابه بفرار ولده الثالث حتى انه حين سئل فى امره « ماذا كنت تريد ان يفعل وهو واحد وخصومه ثلاثة » قال : « ان يموت »

(٢) امتلأ نابليون على أثر انتصاراته المتوالية كبرياء وعجبا فقال المستقبل لى حتى اذا أفل نجمه رد عليه هوجو فى قصيدة طويلة استخفافه السالف بالأقدار وأنه حين أخذته تلك العزة أنسته صوت الطبيعة يجيبه من طرفها القصي بأن «المستقبل لله»

١٥ فبراير سنة ١٩٢٤ » وأظنكم متشوقين لتسمعوا مني شيئا بصفتي الحكومية فمن كانت الحكومة لا تتكلم .. »
لأنها من جوامع الكلم التى انفردت دون سواها بالعظمة

وليس للعظمة حد كما أنه ليس للفضاء حد ففن التصوير الذى لا ينهض الا بالخطوط لا يصل الى مستوي العظمة الا اذا كان وليد خاطر أو خيال. ولذلك لم يصرخ بشير السنين الغابرة ببزوغ فجر الجمال على الكون الا يوم اخرجت الأرض من احشائها ذلك المخلوق العظيم رسول العرفان والشعور وهو الانسان

الطبيعة والفن

الطبيعة عظيمة كما قلنا ولكنها جميلة ايضا غير ان جمالها مخبوء فى ثنايا عظمتها فما على الانسان الا ان يرفع اللثام عنه ليظهره كما هو .

والمصور الحاذق يعرف أنها جميلة ولكنها تجهل ذلك

وأذن فجمالها لا يوجد الا حيث يكون مفهوما ولهذا كان من يفهم سر جمالها ويكشفه اسمى منها لأنه يعلنه فى حين أنها تخفيه .

وفهم جمال الطبيعة مما يكسو الفن بثوب من الجمال حتى أن اسكندر المقدونى ما اهدى كمباسيا الجميلة الى صديقه أتيل الا لأنه يفهم معنى جمالها اكثر من غيره وهو نابغة اليونان فى التصوير .

ولما كانت الطبيعة خرساء ولا لغة لها اضطر المصور الى النظر اليها ثم الى نقلها ولكنه رويدا رويدا اخذ يزحزح النقاب عن محاسنها ويكشف شيئا فشيئا من مواضع عيوبها حتى اهتدى الى مواقع جمالها الرئيسية وعندئذ ظهرت امام عينه مجموعة كبيرة أمكنه ان يختار منها ما يراه اكمل اتقانا واحكم صنعا

وفيم هو يتعمق فيها انكشفت له القوانين الأزلية التي روعيت فى خلقها فوفق لتجاوز الجمال الظاهري الى

جمال معنوي اسمي منه وهو الخيال

فالمصور والنحات اما ان يقلدا الطبيعة مجرد تقليد وأما ان يكون غرضهما من تقليدها تحقيق خيال توحي به خواطرهما ولكن بين هذين الطرفين خطرا لأنهما اذا نقلاها وهما على مقربة منها حوى نقلهم شيئا من عيوبها واذا نقلاها بعيدين عنها فاتتهما الدقة التي تكسوها بثوب الحياة . واذن فخيرلهما ان يكون غرضهما من التقليد تحقيق ذلك الخيال ولنضرب لذلك مثلا :

بينما كان نيقولا بوسين (١) يتنزه على شاطىء نهر التبر لاحت منه التفاتة الى أمرأة تغسل طفلها وبعد ان نشفته ضمته الى صدرها وأخذت تداعبه . فهاج هذا المنظر

---

(١) مصور فرنسى بارع من اشهر لوحاته : رعاة اركاديا ونجاة موسى من الغرق والفرار من مصر وكان سليم الذوق نبيل الغرض حتي ان فرشته فى بعض الأحيان كانت تصل الى ذروة العظمة ١٥٩٤ — ١٦٦٥

خياله لانه تخيل موسي النبي حين نجا من ماء النيل فقام ذلك في مخيلته مقام ذلك الرسول العظيم مشرع العبرانيين وقامت فلوات روما في عينه مقام صحراء مصر الواسعة ثم تخيل عن بعد اطلال مسلة او أهرام فأضاف اليها شيئاً من النخيل وهكذا أمكنه أن يعيد لنا ذكرى سيدنا موسى وقصته التاريخية ناطقة حية حتى كأنه نشرها من بطون التاريخ أمام اعيننا أو كأنه قطع بنا الى الوراء ذلك الماضى الطويل حتي وقف بنا عندها . وما كان ذلك المصور القادر ليصل الى هذه العظمة لولا ذلك الخيال

هكذا اذا تم لرجل الفن تحقيق ما يوحي اليه به خياله من المعانى خرجت آثاره تحمل بين أردانها الحياة والحقيقة. ولقد كان رافاييل (١) وهو يتم صورته البديعة التى سماها

---

(١) اشهر اهل زمانه فى التصوير ومن اركان نهضة أيطاليا Renaissance ولقد بلغ من علو كعبه ان اكتسب احترام البابا يوليوس الثانى وليون العاشر وله فى الفاتيكان أثر ناطق بنبوغه .

جالاتيه Galateé (١) يرى النساء الجميلات نادرات في نظره حتى انه كان يضطر الى استكمال جمالهن من جعبة خياله. كان يرى القروية التي يصورها نموذجا للجمال ولكن ناقصا لأن كفيها وقدميها شوهتها متاعب العمل على ان تاريخ الفن الاغريقي (اليوناني) ترك لنا أمثلة عديدة على ذلك كانت محل اعجاب العالم وستكون كذلك ابدا لأنها خالدة كتمثال منرفا آلهة الحكمة وابوللون آله الشعر وهرقل آله القوة والزهرة الهة الجمال لأنك لو درت فى هذه التماثيل ببصرك تجلت لك هذه الصفات ناطقة من خلال ذلك الحجر الصامت فلم يكتفوا بالنقل المجرد

ولقد مات وهو فى مقتبل الشباب في سنة ١٥٢٠ حيث دفن بالبانتيون ولكنه ترك من بعده عددا لا يحصي من الآثار الفنية النادرة

(١) فتاة يضرب بها المثل فى الخلاعة والتأنق جعلها الشاعر الفذ فيرجيل بطل مقطوعاته الشعرية ولعل ما صوره رفاييل بهذا الاسم اشارة الى تلك الفتاة



(شكل ٣) (ألهة الحكمة)

عن الطبيعة وانما تزوجوها وامتزجوا بها فخرجت آثارهم لسانا خالدا يفسر للعصور المقبلة ما أبهم على الناس من شعر الطبيعة الجميل

المؤثرات على الفن

البذرة في الأرض لا تصلح الا اذا صادفها وسط

ملائم لنموها . فالأرض اليابسة تخنقها وهي فى أول دور من أدوار حياتها . واذا كانت غير عميقة ترتاح الجذور فيها كان النبات عند اول هبوب الريح عرضة للزوال . وايضا يجب ان تحيط بالبذرة حرارة بنسبة خاصة لتحي . وان لا تكون التربة صالحة لنوع آخر والا زاحمها فى غذائها

كذلك للفنون وسط خصيص بها

ولا يكفى ان تكون الطبيعة أول غارس للرؤس البشرية المفكرة فلا بد لها ايضا من حرارة روحية تكفل حياة تلك الرؤس العاملة والا أجهضت. والنبوغ كالنباتات يتنوع بتنوع تلك الحرارة ولذلك تري الكتاب والمصورين والنحاتين وغيرهم تختلف آثارهم باختلاف افكارهم وأخلاقهم ومشاربهم وما هى الا أثر من آثار الوسط المحيط بكل منهم

ترى من الكتاب من يختار لمؤلفاته اشخاصا اخلاقهم حادة عنيفة ومن يبرزهم فى اخلاق هادئة ساكنة . وترى

من المصورين وامثالهم من يميل الى الخيال Idéaliste ومن يعشق الحقيقة المجردة Réaliste ومن تفتنه الألوان الزاهية Coloriste والقرن الذى يعيش كل منهم فيه ربما كان يتطلب ذلك حتى اذا حاول أيهم ان يسلك طريقا اخرى استعصت عليه

وهذا الأساس ثابت فى تاريخ حياة الانسان. انظر الى القرن السادس قبل المسيح بآسيا والى القرون العشرة الاولى بعده بأوروبا ترأن الأحزان كانت مرفرفة بأجنحتها السوداء فوق ربوعها على أثر الغارات والقحط وفواتك الأمراض وسموم الشقاء. عوامل كلها تخلق في النفوس يقينا ثابتا بأن الحياة ما هي الا صورة من صور الشر

ثم أن مصائب الزمن التى تؤثر فى نفوس الشعوب يكون أثرها اقوى فى نفوس الطبقة الحساسة منها وهم رجال الفكر والفن لأن طوفان تلك المصائب لا يمكن ان يجتاح كل شيء أمامه دون ان يكون لهذه الطبقة نصيب كبير

منه . ومن يدرى كم يكون مقدار هذا النصيب اذا عضتهم انياب الفاقة . وتعرضوا لويلات الحروب ولذل الأسر ولعذاب النفي والتشريد . امام هذا الشقاء الذى كانت سحبه مخيمة فوق أهل تلك القرون كيف كان يلذ لهم العيش أو تطيب لهم الحياة .

زد على ذلك أنهم ولدوا في ذلك الوسط المخيف فضاعف هذا في نفوسهم عاطفة الحزن وأصبحت لهم فى الحياة عقيدة راسخة جعلتهم يحتقرونها ويستخفون بها لأنها لم تكن فى اعينهم غير منفي سحيق وأن العالم لم يكن سوى سجن أبدي وأن العيش ما كان الا عذابا دائما . وأن خير نعمة تنشدها نفوسهم الجريحة هى ان يودعوا هذا الكون الظالم غير باكين ولا آسفين . ازاء هذه الخاتمة كيف تنتظر أن ترى على آثارهم مسحة السرور وطابع الابتسام أو كيف ندهش اذا وقعت عليها عيوننا فلم تقو على حبس دموعها .

نعم ان خاطر الشاعر والكاتب والمصور والناحت وغيرهم ليس الا تلك البذرة التى ذكرناها فاذا كانت لاتسقيها غير الدموع ولا تتعهدها الا حرارة الزفرات فحالا أن تنتظر منها صورة زاهية تنبسط عندها نفوسنا .

وقد يحاول المصور الخروج عن طريقة عصره ليمتع الانظار بأثر باسم ضاحك ولكن يعوزه العون لأنه اذا التفت حوله وجد خياله الجديد غريبا فى ذلك الوسط الذى كله شقاء وآلام فيخور عزمه وتنحل ارادته ولا يكون عمله في أعين مواطنيه الا ناقصا . ثم أنه في الحقيقة لا يجنى من ورائه مغنما مادامت آثاره عرضة لتقدير غيره من الناس وقد أشربت نفوسهم اسىً وحزنا فأصبحوا ينظرون لها بعين لا تفهمها وبذوق ينفر منها .

فالآثار تخرج اذن مطبوعة بطابع الوسط الذي نشأت فيه .

اقسام الفنون

الفنون الجميلة هى الموسيقى والشعر وفن العمارة أو الانشاء والحفر والتصوير وبعضهم يزيد عليه فن التمثيل خطأ

وليس الشعر والموسيقى من اغراض هذا الكتاب

ومما يجب ملاحظته هو أن فن العمارة اسبق على فنى التصوير والحفر لأن الحاجة هى التى أوجدته من عهد الخليقة قبل باقى الفنون . وما وجد فن الحفر والتصوير بعد ذلك الا لزخرفة آثاره ولكنهما استقلا عنه فصارت التماثيل تقام في الميادين والمتنزهات وكذلك التصوير فبعد أن كان محله جدران القصور والمعابد وسقوفها أصبح له لوحات مستقلة متنقلة : بل قد اقتضت سنة الارتقاء أن تنشأ لهذين الفنين متاحف خاصة لحفظ آثارهما .

ولا فرق بين هذه الفنون الثلاثة الا فى أن فن العمارة

يقوم على الأنشاء وأما فنا الحفر والتصوير فقوامهما النقل .

فن الانشاء والعمارة

لا يحقق هذا الفن بمعناه الكامل الا شخصان احدهما فني والآخر صانع لأن الثاني يخرج الى الوجود مايرسمه له الأول .

فالصانع من حيث مهمة البناء ثانوي لأن مهنته فى ذاتها بسيطة لا تخرج عن حد انتقاء المؤن وحساب مقاومتها وتماسكها وتوازنها بخلاف الفني الذى يجب أن يكون سليم الذوق واسع الخيال فيخرج من بنات أفكاره خطوطا ومسطحات تمثل لنا فراغا كثير التأثير على النفس يجعلها تشعر بجمال عمله أو عظمته .

ولذلك فات الذين عرفوا فن العمارة بفن تشييد المباني الأشارة الي الجانب الفنى الذى هو أهم ركن فيه لأن مجرد اقامة الأبنية أمر يعرفه كل الأقوام تقريبا حتي المتوحشين

منهم بخلاف الفن نفسه الذي لم يكن الناس قديما في حاجة اليه .

ثم أن تنسيق المباني واختيار مواضعها وأوضاعها لتكون جميلة أمر لازم لمن يعرف معنى الحياة . تخيل منزلا منفردا في صحراء بعيدة . فهذا المنزل يستوى أن يكون جميلا أو غير جميل لأن أهل المدن محرومون من مناظر الأنهار والجداول الجارية والمزارع الجميلة وجلال الأفق عند شروق الشمس وغروبها . محرومون من لذة النسيم الطلق ومن نعم الطبيعة التي لا تحصى فهلا يعوضون على الأقل من ذلك بمسكن يروق العين ويسر النفس ويجعل بينه وبين تلك النعم شبه موازنة وتعادل

ثم أن فن الأنشاء والعمارة ربما كان فوق غيره من الفنون مكانة لأن أقل ما في آثاره أنها قد تكون هاديا الى حياة أمة بأسرها قبرتها الأيام. نعم ان آداب الأمم ولغاتهم ومعتقداتهم قد تهدى الباحث ايضا الى مبلغ رقيها لأنها

الأثر الدال علي مجهودها النفسى والفكري ولكن آثار مبانيهم قد تكون أكثر خلودا فتحدثنا عنهم والحجر الصامت صحيفة لاتبلى ولا تكذب فى الغالب .

فن النحت

كان حفار ينحت صخرة من صخور باروس ليصنع منها تمثال آله لمعبد البرتينون وكان بين كل طرقة واخري يسمع انينا يخرج من جوف هذه الصخرة فسألها مم تشكو قالت « اشكو ألم الضربات التى تمطرني بها . الا ترى أنك تهشمني بلا رحمة وتنثر فضلاتى تحت كفك كأنها لم تكن مني » ولكن الصانع رد عليها قائلا «ما اجنك ايتها الصخرة أن هـذه الضربات هي التى تجعل لك قواما وشكلا . وهى التى تخرجك عن طور الحجرية التي أنت فيها وتجعلك زينة خالدة للأجيال الآتية »

نعم ان هذا خيال شاعر ولكنه خيال صحيح يعرفنا

ماهية فن النحت هذا الفن الجميل ولقد أراد القدماء ان يتركوا لأعقابهم صورة صحيحة من حياتهم فلم يجدوا غير النقش على الحجر وسيلة الى ذلك لأن نسخ هذه المطابع الحجرية خالدة على ممر الزمان .

ان فن النحت هو اكبر مهذب للجنس البشري . وكل أمة تغض طرفها عنه وتهمله تكون عرضة لنقص في التربية العامة لان الجمال الشكلي شرط اساسي من شروط الحكمة يبعث على سلامة الذوق . وما جمال جسم الأنسان الا اثر من أثار الله اودع فيه من أسرار الحسن ودقة التركيب وتوافق النسب ما تعجز عن وصفه موسوعات الكتب . والنحت وحده هو لغة هذا الكنز الثمين تلك اللغة السهلة التي يقرأها كل انسان ما دامت لاتحتاج الى غير النظر .

ويظهر أن القدماء لم يهتدوا جميعا الى موضع هذا الحسن فأهملوه اذ كانوا من نيف وألفي سنة لا يعنون بتعليم

ابنائهم كيف يصلون الى تقليد هذا الانسان الكامل البديع.
كانوا يعلمونهم اسرار الحركة والسكون ويهملون تدريبهم على طريقة الوقوف والمشي برشاقة ويصرفونهم عن البحث في حركات العضلات وتناسب اعضاء الجسم واوضاعه

وربما كان الاغريق هم الذين انفردوا بهذه العناية حتى كانت عندهم جزءاً متمماً للفلسفة ولذلك كان حكماؤهم من عشاق هذا الفن فسقراط الذى نبذ عقيدة تعدد الآلهة واهتدى الى سر التوحيد كان نحاتاً بارعاً حتى انهم ينسبون اليه تمثال الجميلات الثلاث (Les Trois Graces)

ان فن النحت يرفع الحقيقة الشائعة الى مستوى الحقيقة المفردة التي تعد نموذجاً وأصلا. ثم يبحث بعد ذلك في ثنايا الحياة الظاهرة عن مميزاتها وبذلك يصل الى كنه الجمال الذى تنشده الخواطر .

والمرء حين يولد تولد معه فكرة مشوشة عن الجمال لا يعرف ماهيتها اهي الهام نفسي ام ذكرى لحياة سابقة

وعلى كل حال فاذا وقع نظره بعد ذلك على مشهد رائع من مشاهد الجمال وقف حائرا ذاكرا لأنه يحس كأن هذا المشهد حقق شيئا من تلك الفكرة التى ولدت معه وسدت فى نفسه شيئا من فراغ ذلك الحلم ولكنه لم يكن صاحب الفضل فى استكشاف هذه الحقيقة لأنه ولد معها والظروف هى التى كشفتها

وربما كان لخيال النحات فضل هذا الاكتشاف ايضا واذا شئت مثلا على ذلك فانظر طويلا الى تمثال ابى الهول العظيم والى تمثال النهضة الذى وضعه محمود افندى مختار .

مرت القرون وذلك التمثال غائر في رمل الصحراء يحدق بنظره فى فضائها فماذا ينظر ياترى ؟ اهذا النيل الذي في مجراه حياتنا. ام ذلك الأفق البعيد الذى مافتئت الشمس ترسل لنا منه تحيتها صباح مساء . ام تلك الأجساد التى ثوت من حوله تحت اديم الصحراء . وماذا يريد ان يقوله لنا فمه الذى جنت عليه الليالى . ألعلها يئست من صمته

الطويل فهشمته حين اشتد غضبها .

ثم ان موقف أبي الهول ظل لغزا يغرس في النفوس غراما الى اكتشافه ولكن محمود افندى مختار عرف كيف يستفيد من هذا الموقف في تمثال النهضة الذى وضعه فلقد مثل لنا الى جانب ابى الهول مصرية شامخة بأنها تنظر الى المستقبل بثبات وأيمان وكأن فى أفق الغيب ما يدل على ذلك حتى ان ابا الهول نهض بصدره من ذلك الرمل الذى كان غائرا فيه كأنه يتطلع الى حكم الأيام المقبلة .

كان من السهل على محمود مختار ان يقتصر على نقل الطبيعة مجردة ولكن رأسه ملأها ذلك الخيال فلم يهدأ له بال حتى أعلنه على تلك الصورة ذات المعنى السامى الجليل فكان محل الأعجاب بفرنسا و مصر

هذا جزء من كل مما انطوي عليه هذا الفن الجميل

فن التصوير

كان القدماء لا يعرفون من الرسم غير مد الخطوط

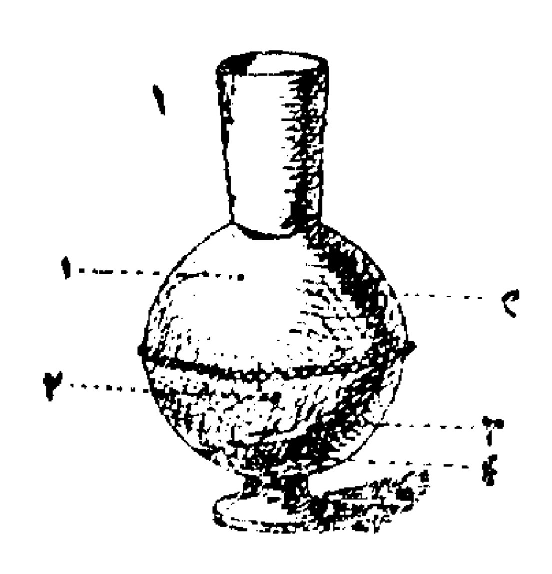
فكانت رسومهم مجرد رموز بسيطة لا تؤدى غرضا كاملا وهذا ظاهر من كل آثارهم ولكنهم تدرجوا بعد ذلك شيئا فشيئا كلما ازدادوا فى الطبيعة تأملا ونظرا وتفكيرا .

ويكفى ان تضع امامك صورة قديمة وأخري اقل منها قدما ليتجلى لك الفرق بينهما .

زادهم فهم الطبيعة عرفانا وعلما فأدركو ان مجرد الخطوط لا ينهض بأغراضهم وان لا بد هنالك من معين آخر يعطيها قواما ويلبسها شكلا حتى اهتدوا الى قيمة الظلال وان منها ما يكون كاملا (Om bre) ومنها ما يكون نصفيا وهو ما يدخل فيه شيء من النور (Demi Teinte) ومنها ما يسمونه الظل المضيء وهو ما يحصل من انعكاس الضوء على جزء داخل فى الظل (Reflet)

وهذه الظلال تراها على نفس الأجسام لأن هناك نوعا اخر أطلقوا عليه اسم الظل المرسل(Om bre Portée) وهو ظل الأجسام لا عليها ولكن علي الارض أوغيرها

(شكل ٤)



من المستويات المنفصلة عنها وقريبة منها .

وماذكر هو بالنسبة للأجسام وأما بالنسبة للمناظر فقد هداهم طول النظر والتحليل الى اكتشاف اصول اخري كخطوط الأرض والأفق ونقط النظر والمسافة والخطوط الوهمية والنقط العارضة مما ليس هنا مقام تفصيله بحيث ان من يري تلك المناظر يشعر بأبعادها ونسبها مما يسمونه فن المنظور (Perspective)

واقد كان ذلك داعيا الى وضع تعاريف كثيرة لهذا الفن رأيت خيرها في انه يجعلنا نشعر ببروز وتجويف على سطح مستوى . وفي الواقع ان الرسام ليمثل لك على ورقة منظر اطواد ومهاوى تكاد تتسلق الاولى وتغوص في الثانية ولكنك اذا وضعت كفك على تلك الورقة لاتجد من ذلك شيئا

وغرضنا من فن التصوير هنا ليست اصول الرسم المذكورة مجردة عن اللون الذى يعطى لكل جزء من اجزائه شكله الحقيق بل الرسم ملونا وهوما يسمونه بنتور (Peinture) لان اللون فى الحقيقة هو لب هذا الفن

ولقد ولع القدماء بالالوان ليطلوا بها اثارهم ومبانيهم ولكنهم بعد ذلك ادركوا ان الرسم بالالوان قديصل بهم الى مستوى ارقى وهكذا بعد تدرج طويل انفصل التصوير عن عالم الآثار واستقل بنفسه واصبح له حياة اخرى صحيحة غير حياته الاولى

ولكنه مع ذلك ظل بعيـدا عن جمال الحقيقـة لانه كان دائما تحت تأثير العقائد الخرافيـة وان كان القـدماء يرجعون فيه الى نفس الانسان اذ كانوا يعتقدون ان آلهتهم ما كانت الاعلى اشكال بشرية كامـلة صيرها الجمال ابدية خالدة حتى انهم كانوا يضعون للأنهر والجبـال والاشجار والزهور والسموات والبحار رموزا على تلك الاشـكال . وهكذا مثلوا لنا الارض بامراة على رأسها اكليل والبحر بآله عنيف والفلوات المخضرة بفتاة جميلة مضطجعة الخ

واذن فالتصوير لم يصل الى الحد الاقصى من فصاحته فى ذلك العهد الغابر ولكن لما بزغ فجر التوحيـد ودالت دولة الوثنية وقضي على تلك الخرافات اصبح السلطان على جمال الجسم الفانى لجمال النفس الخالدة وهكذا اصبح المصور حرا من قيود تلك المعتقدات السخيفة وصار لا يرى من فوقه الا الها واحدا خفيـا قادرا ولا من حوله الا اجساما فانية

مهـذبة وبذلك نزل عن عرشـه الوهمي الاول الى وسط كله حقائق

هكذا هداه التطور الروحي الى ان يترامى فى احضان الطبيعة ويتخذها استاذه فلبس اكل زمن لبوسها وتأثر خاطره بمرآة السماء الصافية التي تظله وبمناظر الخضرة الأنيقة التى تمتد الى امد بعيد من حوله فولد كل هذا فيه شعورا جديدا نقله من كلمات ذلك الخيال الكاذب الي فجر هذه الحقيقة الصادقة

وقد لا يكون التصوير موضوعا لغرض ما ومع ذلك تراه يسمو بأرواح الشعوب الى سماء العرفان وحسن الخلال فقد روى ان مصورا أغريقيا مثل فى احدى لوحاته بالاميد (Palamyde) وقـدهم رفاقه بقتـله على أثر وشاية عولص فـكان اسكندر المقدوني كلما وقع نظره على تلك اللوحة ذعر واصفر لونه وعرته رعشة شديدة لانها كانت تذكره بما فعل هو ايضا بصاحبه كليتوس حين قتله

هكذا ترى فرشة المصور تهز اعصـابنا وتثير ندمنا

وتهـذب من نفوسنا وتصلح من اخلاقنا مـع انه لم يكن برسول يدعو الى دين ولا باستـاذ يطرح علينا درسـا من دروس الاخلاق والفلسفه

نرى اشخاص اللوحـة على صمتهم الأبدى يكلمونا بصوت اعلى من صوت اولئك المرسلين وزاهم فى سكوتهم الطويل يرجون مشاعرنا رجا ويرسلون الى رؤسنا عوامل الحركة والتفكير والى ارواحنا ايات عظاتهم البينات

والمصور الماهر يجعل للعواطف المتعددة لغـة يقرأها الأمي منا لانها تنم على نفسها بغير حاجة الى ترجمان

ومن هذا القبيل (العائلة البائسه) من عمل بريدون فانها تهز اوتار الرحمة عند اشد القلوب قسوة والجاكنـد (Jaconde) لليونار دافنشي التي سرقت من متحف اللوفر ووضعت مكافأة قدرها مليون فرنك لمن يعثر عليها فانك أذا نظرتها لاول مره لاترى فيها غير صورة امراءة عادية ليس على وجهها اثر ظاهر من اثار الحسن ولكن أممن

نظرك فيها ودعها هي ترسل الى عينيك سحر نظراتها فانك لا تلبث ان تشعر بانها اخذت تجمع ما في نفسها من قوة كامنة لتتحرك ثم دبت فيها الحياة شيأ فشيأ ثم تجلت لك سيدة حسناء تحس وتشعر بالحياة وهي تبتسم لك ابتسامة لا تعلم أين مكانها من شفتيها . ابتسامة لا تحرك على شفتيك مثلها لانها غريبة تدعك ذاهلا حائرا مضطربا. وعندئذ تتلقفك اكف الهواجس فتسأل من تكون هذه المرأة . اتراها قاسية الفؤاد ميالة الى الشرور ام هي امرأة سليمة القلب لا تعرف غير عمل الخير والطيبات

ان الجا كوندا ربما كانت اول طرفة ابدعتها يد مصور من عهد دافنشي الى الان اماشاردين وجروزفانهما يصوران لك من الأواني والوان الطعام والثمار ما يحرك شهيتك كانك امام طعام حقيقي

ثم انه تنبيه كاذب ولكن حسب المصور فخرا أن يصبح زمام شعورنا وعواطفنا ملك خياله

مأخذ هذا الكتاب

مصر تأليف ج ماسبرو

التاريخ القديم لأمم الشرق

فن النحت لمؤلفه شارل لو بلان

اجرومية شارل لو بلان

مصر تأليف جبرائيل شارم

الفن تأليف إبيكو . و ث بود

حياة القدماء الخاصة تأليف رينيه مينار وكلود سوفا جو

مصر والسودان تأليف هـ . بنسا

الفن تأليف هـ . وولفلين وترجمة كونرادى مندلش

الفنون والصنائع عند قدماء المصريين تأليف فلندر بترى

فى عهد الفراعنة تأليف ا . مورى

الجدول التاريخى العام للفنون الجميلة تأليف روجر بايير

فلسفة الفن جزءان تأليف هـ . تين

تاريخ المدنيات الاولى تأليف جوستاف لبون

بعض كتب فى فن التصوير والمنظور